في هوية القول .

اسمحوا لي بداية أن أعبر عن اعتزازي كون اللغة العربية هي لغتي الأم وأعتز بها بصفتي امرأة لأنها تعطيني ما لا تعطيه أي لغة أخرى للمرأة .

أولاً: إن اللغة العربية هي الوحيدة بين اللغات التي أعرف ، التي تسمي الكائن البشري بلفظ يحمل صيغة المثنى وهو" إنسان " أي الجمع بين إنسين ، وهو اعتراف واعٍ أو غير واعٍ بأن هذا الكائن البشري هو اثنان مختلفان وليس واحداً وبالتالي هو ذكر وأنثى . وهذا يعني أن لغتنا العربية تقر بكيانية المرأة كذات . من هنا كان اشتقاقي لمصطلح "إنسى " بدل امرأة للتدليل على أنثى الكائن البشري وذلك لأنني وجدت أن مصطلح "امرأة " هو تأنيث مصطلح " المرء" والمرء هو النكرة الذي ليس له هوية محددة . وكلنا يعرف أهمية دور الاسم في كيفية انوجاد المسمى (وهذا يدخلنا في شرح فلسفي طويل لا مجال لدخوله الآن) . لهذا السبب أقترح وأطالب انطلاقاً من قناعتي ، أن نعتمد مصطلح " إنسى" بدل مصطلح امرأة . وهذا ما بدأت أعتمده في رواياتي .

ثانياً : إن اللغة العربية هي من بين اللغات التي تفرد للمثنى مقاماً خاصاً في قواعدها وهذا دليل على أنها تفسح في المجال لوجود الآخر ، وهذا يعني أن لغتنا تملك في تكوينها ووجدانها الأسس الأولى للديمقراطية . فحين تعترف اللغة أن للمثنى في قواعدها مقاماً كما للمفرد والجمع فهذا دليل واضح على إقرارها واعترافها بوجود الآخر لأن الواحدية هي الطريق إلى الاستبداد والتسلط . وأنا أفسر هذا الوضع في لغتنا أنها تعترف بوجود الإنسى كذات إلى جانب الرجل كذات .

ثالثاً : إن اللغة العربية هي الوحيدة بين اللغات المتداولة على الصعيد العالمي اليوم ، التي توفر حيزاً خاصاً للتأنيث ليس فقط في الضمائر والصفات بل تدخله في صلب صيغة الفعل . حين نقرأ فعلاً في لغتنا العربية نعرف مباشرة من هو الفاعل من جهة التأنيث أو التذكير . وأعتبر ذلك اعترافاً صريحاً من اللغة العربية بأن الإنسى فاعلة وموجودة وأن فعلها يختلف عن فعل الرجل ، وهو اعتراف منها بالاختلاف وليس بالتمايز .

رابعاً : أما في حالات الجمع بين الإناث والذكور فتقع اللغة العربية فيما وقعت فيه اللغات الأخرى حيث الغلبة للتذكير ، وهذا دليل أن لغتنا وعلى الرغم من كل حسناتها السابقة لم تستطع الصمود أمام هيمنة الإيديولوجيا الذكورية في نظام أبوي مسيطر ، ليس فقط في عالمنا العربي ، بل في كل العالم وإن كان على درجات متفاوتة .

لذلك كله ، أرفض الكتابة إلا باللغة العربية ، لكن الكتابة هذه طرحت عندي تساؤلات عديدة تصب كلها في مجال حقوق الإنسى وكيفية انوجادها كذات .

أول عمل كتابي قمت به كان دراسة أكاديمية حول تحرير الإنسى (وكنت لا أزال أستعمل مصطلح امرأة) وكنت حينذاك مناضلة في سبيل حقوق المرأة في لبنان . لكني اكتشفت لاحقاً أنني كنت أطالب بحقوق الإنسى على قاعدة تماثلها مع الرجل إذ كنت أحاول التقليل من شأن أي اختلاف بينهما وفي هذا الاتجاه كانت تناضل أغلبية الحركات النسائية في العالم وقسم منها لا زال على موقفه هذا ، ومن هنا ظهرت مقولة الجندر وما إلى ذلك من مقولات مشابهة متداولة في الوقت الراهن .

بعد البحث والكتابة في ميادين متعددة ومع تراكم التجارب ، انطرحت أمامي من جديد أسئلة حول الكتابة ، أي أنني طرحت على نفسي سؤالين أساسيين وهما : لماذا أكتب وكيف أكتب .

أولاً : لماذا أكتب وأستطيع القول لماذا نكتب ؟ علمتني قراءاتي وأبحاثي ، أن الشيء لا يوجد ألا حين يُعقل أي حين نجد له اسماً ، حين نعرّفه . لكن استمرارية هذا الوجود تتم بواسطة التداول الذي يستقيم فعله حين يغيب فعل التعريف ولا يبقى سوى المعرف عنه ، لذلك نستعمل الكلمات من دون أن نفكر أو نعي أصلها ولا كيفية وصولها إلينا . لكن هذه الاستمرارية لا تحظى بديمومتها واختراقها لمفعول الزمن إلا حين تدون وتحفظ في كتب تشبه الأضرحة لكنها أضرحة لكائنات حية ولهذا السبب تحفظ على رفوف

المكتبات وليس تحت التراب . إذاً الكتابة علمتني كيف يستمر الإنسان بعد موته وهو وهم ندخله أو لعبة نلعبها أحياناً ببراءة وفرح لأننا لا نعيها وأحياناً أخرى نلعبها بمأساوية كبيرة لأننا نعيها و نعرف أنها مجرد لعبة ، لعبة الخلود-الوهم الذي يلجأ إليه الإنسان هرباً من حياة بائسة وهي حتماً بائسة ، مهما بدت ناجحة لأن نهايتها هي ذلك العدم الذي لا يرتوي . لكنها ، أي الكتابة ومن بين الألعاب الكثيرة في الحياة هي اللعبة الأمتع في نظري لأنها المجال الذي يمارس فيه الكاتب ، وبخاصة إذا استمر هاوياً وليس محترفاً ، نرجسيته بكاملها . والفرق بين الهاوي والمحترف هو أن الأول يعي أنه يلعب بينما الثاني تنطلي عليه اللعبة . هكذا يحاول الأول إرضاء ذاته وقناعاته بينما يلهث الثاني وراء إرضاء الآخرين ، يعني الرأي العام ، أو إرضاء الحقيقة . لكن هذا المحترف بجديته هذه يخسر نفسه مرتين ، مرة لأنه لن يستطيع إرضاء الآخر ومرة ثانية لأنه لن يرضي الحقيقة لأنها وبكل بساطة غير موجودة .

ثانياً : أما كيف أكتب ، فهو سؤال وضعني أمام نفسي أنظر في مرآة ذاتي لأنني بعد محاولات متكررة في الكتابة بدأت أشعر بنوع من الانفصام بيني وبين ما أكتب وهذا الأمر ولّد عندي انزعاجاً كبيراً أوقفني عن الكتابة لفترة طويلة . لكن السؤال ظل مطروحاً بإلحاح مما دفعني إلى البحث في إلحاحيته هذه . ماذا وجدت ؟

بعد البحث والغوص في الذات إلى درجة انعدام الحواجز والأقنعة كلها تقريباً ، تبين لي أن عدم الرضا الذي شعرت به تجاه كتاباتي السابقة يعود إلى كوني كنت أكتب بالواسطة ، يعني أنني كنت أقول قولاً غير قولي ، أي أنني كي أعبر عما أريد التعبير عنه ،كنت أستعير القول السائد والذي كان لا بد منه لأنه القول الوحيد المهيمن وهو القول الذكوري ، أي اكتشفت أنني كنت كائناً بغيري وليس بذاتي بينما الرجل يسرح في مملكته لأنه يملك قوله الخاص وهذا القول الخاص هو الذي يجعل منه ذاتاً وليس موضوعاً ومن هنا قدرته على الهيمنة وفرض قوانينه جاعلاً من الإنسى أحد مواضيعه لأنها كائن غائب بسبب انعدام امتلاكها لقول يميزها وإذ يميزها يوجدها . وحين توجد فعلاً فهي مالكة لحقوقها حكماً لأن لا حقوق للغياب ، فقط الحضور يتمتع بالحقوق . إذاً عليها أن تنتقل من حيز الغياب إلى حيز الحضور ولا يتم ذلك إن لم تكتشف قولها الخاص المميز .

ما توصلت إليه فتح أمامي مشروعاً كبيراً لأني ما عدت قادرة على الكتابة إذ الكتابة أصبحت المشكلة ؛ كيف أكتب بأدوات ليست أدواتي ، يعني كيف أكتب بجسد غير جسدي . وهنا تبادر إلى ذهني اتهام بعض الكاتبات أو الشاعرات العربيات المعروفات ، بأن أحدهم كتب لهن ما كتبن . أنا متأكدة أن هذا الاتهام هو غير صحيح على الإطلاق ، وهو اتهام يمكن أن يطال كل الكاتبات العربيات لأن قولنا ما زال قولاً ذكورياً . اتهمن إذاً لأن كتاباتهن تشبه كتابات هذا الكاتب أو ذاك ، والمنطق السائد يقول : ما المانع في التشابه ؟ وهذا صحيح . لكن البحث في الكتابة الإنسوية الراهنة من جهة وفي ماهية القول من جهة ثانية بيّن لي أنه لا يمكن لهذه الكتابة الإنسوية إلا أن تكون ذكورية لأن القول الذكوري هو القول الأوحد السائد ، فكيف نقول إلا به ؟ من هنا غياب الإنسى وبالتالي تبعيتها ودونيتها وحرمانها من الحقوق التي يتمتع بها الرجل . هنا أدركت أن الرجل الذي راكم القول عبر العصور ، شكّل العالم كما أوصلته إليه أدواته المعرفية ، فكان على صورته وكانت الإنسى موضوعاً من موضوعاته فطبق عليها قوانينه حارماً إياها مما يتمتع هو به، وأصبح قوله هو القول الذي يشبه ، في وجوده ، البداهة . من هنا ظهرت سيادته كأنها أمر طبيعي كما أن عبودية الإنسى أيضاً هي أمر طبيعي . ولهذا السبب أرى أن كل نضالات الإنسى في سبيل نيل حقوقها المساوية لحقوق الرجل سيظل نضالاً عقيماً إن لم تجد قولها الخاص الذي به تشكل العالم على صورتها ، وهنا لا بد من البحث عن الأدوات التي بها يتم هذا التشكيل . قمت بهذا البحث وحاولت تحديد هذه الأدوات وكيفية انبناء القول الإنسوي المختلف. سأحاول الآن أن اعرض بسرعة ما توصلت إليه في ذلك البحث .

أبدأ بالرد على مقولة سيمون دي بوفوار الشهيرة والتي تقول فيها إن المرأة لا تولد امرأة بل تصير امرأة ، وردي هو أن الإنسى تولد إنسى وبفضل نضالات وتعاليم الحركات النسائية القائمة تتحول إلى شبه رجل . لماذا أقول شبه رجل ؟ لأنها ، وبفضل التشديد على تماثلها مع الرجل تتحول إلى رجل

مخصي ، فلا تعود إنسى ولا تصبح رجلاً بل تتحول إلى نوع جديد لا هوية له سوى طموحه لأن يكون ذكراً . لهذا السبب تسمى ، تبجيلاً : أخت الرجال كما يقال في الدارج .

أقول ذلك انطلاقاً من واقع الحال الذي أدت إليه كل النشاطات النسوية في العالم عامة وفي العالم العربي خاصة . رب معترض أو معترضة تقول إن هذا النضال قد حقق الكثير للإنسى من حيث المكاسب فهل المطالبة بحقوق للإنسى تساوي حقوق الرجل هي عمل خاطئ ؟ أسارع إلى القول :لا . المطالبة بتلك الحقوق ليست خطأً ، إنما الخطأ يقوم في الأساس الذي انطلقت منه هذه المطالبة . إن الخطأ يقوم على محاولة البرهنة أن لا اختلاف بين الرجل والإنسى بحيث ينتج عنها حكماً وضرورة المساواة في الحقوق بينهما . والصحيح أنه يوجد اختلاف بين الاثنين وهو اختلاف طبيعي يعود إلى بنية وتركيبة جسد كل منهما . لكن هل إن اعترفنا بهذا الاختلاف ، يرتب علينا أن نستنتج أحقية التمايز في الحقوق بينهما ؟ طبعاً لا . إن هذا الخطأ الذي يبني الحقوق على الطبيعة هو خطأ شائع حتى بين علماء الاجتماع وغيرهم أو على الأقل بين بعض من يدّعون التنظير في السياسة وعلم الاجتماع ، يعني في ميادين عديدة وليس فقط في موضوع الإنسى . وهنا أقول للإنسى وتصحيحاً لهذا الخطأ : من الطبيعة لا نستخرج حقوقاً (وهذا هو الخطأ الذي أنتج كل التمييز العنصري في العالم) ، الطبيعة تسمح لنا فقط باستخراج القوانين ، أما الحقوق فهي وضعية، تخضع لشروط متغيرة ، كانت دائماً عبر التاريخ من صنع الأقوى .(القوة هي أيضاً تغير مضمونها غبر التاريخ إذ تحولت من قوة الجسد في بدايتها إلى قوة المال في أيامنا هذه مروراً بمضامين مختلفة)

لهذا أرى ضرورة التشديد على عنصر الاختلاف بين الرجل والإنسى وعلى ضرورة أن تجد الإنسى قولها الخاص الذي به تظهر اختلافها وتصبح منسجمة مع ذاتها الحقيقية . فإذا كان الرجل منسجماً مع ذاته ومع قوله من خلال مبدأ الهوية القائم على ال"هو-هو" ، فإن الإنسى في وضعها الحالي تحاول تطبيق مبدأ الهوية من باب ال "هي-هو" ، بينما المطلوب هو تحقيق هذا المبدأ من باب ال"هي-هي" .

لكن ما القول ؟ هذا هو السؤال وهو سؤال كبير . سأحاول الإجابة عليه باختصار شديد ؛ أعتبر أن القول هو التعبير بالكلام عن الأنا بعد أن يمر هذا التعبير بكل المصافي التي تكلم عنها فوكو وغيره قبل أن يصبح قولاً منتظماً . والأنا لا يلتقط إلا من خلال تعبيره عن ذاته. إنه هذا الشيء في ذاته الذي تكلم عنه كنط والذي لا يعرف منه سوى ظاهرته وذلك وفقاً لبنية قدراتنا المعرفية . وعندما نقول تعبيراً فهذا يفترض من يُعبر أمامه ، أو من يتلقى التعبير ، وإلا أصبح مجاناً ولا ضرورة له . هذا الشريك في التعبير هو الآخر الذي هو أيضاً أنا يعبر عن ذاته . وإذا كان للتعبير أدوات متعددة فإن القول هو التعبير فقط بالكلمة التي تعني الكتابة والمشافهة معاً .

هذا الأنا الذي قوله يعبر عنه لا ينوجد أو لا يرمى في العالم الذي عليه التفاعل معه لإنتاج قوله ، إلا من خلال جسده . الجسد هو أداة الأنا للتواصل مع العالم وهو إذاً ظاهرة الأنا (le phénomène du moi) ، إنه ركيزة وأداة المعرفة في الوقت نفسه وبالتالي ، لا يتم القول إلا به أي بالحواس التي تشكل المعطى الأول والأداة الأولى في صياغة القول . إنها الأساس الذي يقوم عليه كل البناء القولي والذي بتراكمه يشكل التاريخ والتراث وما يسمى الحضارة .

من المتعارف عليه أن أول آلة يمتلكها الأنا هي جسده الذي به يتحرك ويتغذى ويتكاثر و...ويفكر ويقول ويعبر ، يعني الذي به يكون . هذا يعني أن القول هو امتداد للجسد أو بالأحرى هو التعبير عن تفاعلات جسد الأنا مع الخارج بكل معاني التفاعل .فلكي يكون للأنا قوله الخاص ، عليه أولاً امتلاك هذه الآلة الأساسية التي هي الجسد وكلنا يعلم أن جسد الإنسى في بلادنا العربية لا زال ملكاً للرجل ، ومن هنا أقيم إيجابياً مطالبة بعض الحركات النسائية بحق المرأة بامتلاك جسدها (هذا ما طالبت به في كل مشاركاتي في الندوات حوا تحرير المرأة وكنت أجابه بالرفض لأن الموضوع لم يحن وقته بعد وهذا ما دفع بي إلى الابتعاد عن الحركات النسائية في بلدي ولكي أكون أكثر صراحة أُبعدت ولم أعد أدعى إلى اجتماعاتها .) لكن هنا أيضاً أرى أن هذا المطلب الحق أتى ناقصاً ونتائجه غير مميزة لأن مضمونه يحمل

معنى أن تمارس الإنسى جسدها جنسياً كما يمارس الرجل جسده ، يعني أن تكون لها الحرية التامة بأن تمارس الجنس مع من تختاره لذلك الغرض ، تماماً كما يفعل الرجل الذي ، حين يهتاج لا يعود يميز بين حبيبة أو عاهرة ، بنت شارع . لا أنفي أن ذلك ، إذا تحقق فعلاً ، هو مكسب للإنسى لكنه سيظل مكسباً ضمن المفهوم الذكوري للتحرر. يبقى الشق الآخر وهو ضرورة معرفة الجسد ، لكي يكون التعبير بواسطته قولاً جديداً ومختلفاً . هذا الشق ، على ما أعتقد لا زال غائباً عن بال النشاط الإنسوي وعن ندواته ومهرجاناته المتنقلة من بلد إلى بلد . من هذا الباب سأدخل لمحاولة البحث عن أسس لقول إنسوي مختلف .

إذا اعتبرنا أن الجسدَ هو ظاهرةُ الأنا ، يبقى أن هذه الظاهرة لا تكون كذلك إلا إذا كانت نوافذُ الجسد مفتوحةً ، وإلا إذا ما أغلقت هذه النوافذ _ الحواس ، استغرق الجسدُ كلَ الأنا إذ يصبحُ جثةً ليس لها شيءٌ في ذاته يحملها .إذاً ما يميّز الجسد هو استمرارُ انفتاح النوافذ. يبقى أن نعرف كيف يتعامل الأنا مع هذه الحواس ، والأنا ليس حيادياً بل هو أما ذكرٌ إما أنثى وذلك إذا أخذنا تركيبةَ الجسد مقياساً للذكورة والأنوثة وإذا عدنا إلى مصطلح إنسان الذي اعتمدته اللغة العربية للتعبير عن الكائن لبشري . وقبل أن نجيب عن كيفية تعامل الأنا مع حواسه ، نطرح السؤال التالي: كيف تعامل الأنا مع الحواس عبر التاريخ وحتى الآن ؟ هذا هو السؤال الذي إن استطعنا الإجابةَ عنه تمكنّا بالتالي من معرفة ركائز القول الرجولي ومن ثم ما يجب أن تكون ركائزُ القولِ "الإنسوي".

إذا انطلقنا من ضرورة امتلاك الجسد للوصول إلى قول خاص ، نرى أن الرجل يمتلك جسده ، لأنه يمتلك القرار في التقائه بجسد الآخر أي جسد "المرأة" بينما هي لا تمتلك هذا القرار إلا خلسة أو تحدياً أو تشبهاً بالرجل ، وبخاصة في مجتمعاتنا الشرقية . لكن مفهوم الملكية هو مفهومٌ جشع إذ أن منطقَ الرأسمال هو التراكمُ ، والرجل الذي يمتلك جسده الذي هو رأسمالُه أراد ويريد أن يمتلك أيضاً كلَ امتداداته بمعنى كل ما ينتجُ عنه ، أي الأولاد . والامتلاكُ هنا يأخذ صيغة النِسبة ، فينسبُ الأولادَ إليه ، بينما لا يحق "للمرأة" وبسبب عدم امتلاكها لجسدها أن تمتلك ما ينتجُه هذا الجسد ، يعني لا يحق لها أن تنسبَ الأولاد إليها (إذا كانت من دون اسم فكيف تستطيع أن تنسب أحداً إليها ؟) . هذا يعني أيضاً أن الرجل هو الآن كائن لذاته بينما المرأة هي كائن لغيره أي أداة لتحقيق ما يريده الهو . من هنا يأتي قولُ الهو أو قول الرجل ممتلئاً ويأتي قولُ المرأة فارغاً ، بمعنى أنه الصدى للقول الفعلي وتمثيلٌ على خط مرسوم سلفاً .

المهم في كل ذلك بالنسبة للقول ، ليس عملية التملك بحد ذاتها بل كيفيةُ إتمام هذه العملية ؛ إن أبوة الرجل للأبناء تحتاج إلى إثبات بينما أمومة الأم للأولاد هي واقعٌ بديهي ، والإثباتُ محاججةٌ قائمةٌ على البرهان ، على فعل القول ، والقولُ لا يكون فاعلاً إلا إذا تمأسس . لهذا السبب أنشأت مؤسسةُ الزواج التي تؤمِّن عمليةَ امتلاك الرجل " للمرأة" . وبما أن الزواجَ لا يقدّم البرهانَ القاطع على علاقة الرجل _الزوج بالأولاد ، دُعِّمت مؤسسةُ الزواج بمؤسسة أخرى هي دوائرُ النفوس كما تسمى الآن أي بالتسجيل الذي به يُحرّرُ صكُ الملكية . هذا يعني أن الرجل ، بهذا التسجيل يريد أن يرى ويسمعَ الجميع يعني أن يعرف الجميع أن المولودَ داخل مؤسسة الزواج هو فعلاً ابنُه (ربما كانت سجلات النفوس هي أول قول مكتوب ؟ لا أدري .) بينما لا تهتم "المرأة" لكل هذه الإثباتات ، إنها الأم بالملموس والبداهة . إنها في هذه العملية تعيش المحايثةَ في كل أبعادها ولهذا السبب تكتفي بشم الطفل وضمه ومداعبة جلده الناعم ، تاركة الرجلَ يسعى جاهداً لبناء المؤسسات الثبوتية . لكن هذا الواقع سمحَ ببلورة القولِ الرجولي . من هنا يمكننا القول ربما أن قولَ المرأة هو قولُ البداهة والمحايثة (إذ يكفيها أن تدل على الولد وتقول هذا ابني) بينما قولُ الرجل هو قولُ التجريد والتصعيد والرمزية (بدل أن يدل الرجل على الولد ويقول هذا ابني ، يقول هذا ابني بارزاً تذكرة الهوية التي تمثل صيغةً كلامية لواقع وليس الواقعَ الملموس المحايث البديهي .)

هذا الواقع ، نعتبره الآن طبيعياً ، لكنه ، تاريخياً مرّ بمرحلتين ؛ الأولى ، وبحسب علم التاريخ والأركيولوجيا ، تمتد من الألفية الثالثة عشر قبل الميلاد حتى الألفية السادسة أو الخامسة قبل الميلاد والثانية تمتد من ذلك التاريخ وحتى عصرنا الحالي . ميزةُ المرحلة الأولى كانت الالتصاق

بالطبيعة مع الخوف من غموضها ، والدراسات والتنقيبات تظهر لنا أن الإنسانَ في تلك المرحلة كان يقدّس "المرأة" (الاكتشافات الأثرية للتماثيل تدل على ذلك) ويوازي بين غموض الطبيعة وغموض عملية الإنجاب عندها، فهو ما كان يعرفُ دورَه في تلك العملية . لا كان يملك المرأة ولا كان يملك الأولاد ، وجسدُه كان بنظره عقيماً . وإذا عدنا إلى القول نرى أنه من الضروري أن يكون في تلك المرحلة هو قول المحايثة أو القول المبني على المكان حيث أن إنسان تلك المرحلة كان غارقاً كلياً في الطبيعة محاولاً اكتشافها . كان لم يصل بعد إلى مرحلة التصعيد والتجريد . من هنا أعتقد أنه في تلك المرحلة ، لم يكن يوجد اختلافٌ بين قول الرجل وقول المرأة ، بمعنى أن القولَ المهيمن كان قول المرأة وقوله كان ترداداً لقولها تماماً كما هو الآن قولُ المرأة تردادٌ لقول الرجل . (وهذا الاعتقاد مشروع إذا ما عدنا إلى مقالة نشرها كنط حول كيفية ملء الفراغات بين الوثائق التي تصلنا عن عصر ما .)

أما ميزة المرحلة الثانية التي بدأت مع الميتولوجيا اليونانية فهي التركيز على الحركة ، يعني أن الإنسان في تلك المرحلة بدأ يركز على حدس الزمان ، وهذا ما نستنتجه من أهمية "هرمس" المتحرك والجوال في تلك الميتولوجيا التي قسّمت الأدوار حيث أن الإلهات ك"ديميتار وهستا " وغيرهما كانت تمثل المكان ، إما البيت أو الأرض البور أو الأرض المحروسة ... بينما هرمس وغيره يمثلون الحركة والتنقل والحروب و... هذا الواقع الذي بدأ مع الميتولوجيا اليونانية يعبّرُ عنه حديثاً "بارت" بالقول أن المرأةَ مقيمةٌ والرجلَ رحالةٌ أو جوال . هذا القول يعني تماماً أن المرأة تمثل المكان بينما يمثل الرجلُ الزمانَ . إذاً في المرحلة الثانية هذه بدأ التركيزُ على حدس الزمان ، وهنا بدأ القول يتمايز se nuancer إذ دخله الحدسُ الجديد . هذا الحدس ، تسلح به الرجل الذي بدأ أيضاً يعرفُ دورَه في عملية الإنجاب ، ليجدَ قولَه الخاص المتميز عن القول السائد سابقاً حيث ألا تمايز وحيث كان القولُ المهيمن هو القول المبني على حدس المكان ، يعني قول المرأة ، من هنا بدأت مرحلةُ القول الرجولي الذي ما زال هو المسيطر .

إذا قبلنا أن القول المسيطر الآن هو القول الذي انبنى أساساً على حدس الزمان وإذا قبلنا ما قلناه سابقاً من أن الجسدَ هو أداةُ القول من حيث التواصل مع الخارج انطلاقاً من نوافذه التي هي الحواس الخمس ، السؤال الذي يُطرح هو حول الربط بين هذا الحدس أي حدس الزمان والحواس التي تلائمُه ، يعني ما هي الحواس التي استعان بها هذا الحدس بشكل أساسي كي يستطيعَ إدراجَ معطياتها تحت مقولات الفاهمة لكي ينتجَ عن ذلك قولٌ؟ (يرجى هنا العودة إلى كنط أكبر فلاسفة العصور الحديثة في كتابه " نقض العقل المحض" وبخاصة أننا نحتفل بذكرى المائتين لولادته ونحن بضيافة بلده .)

يسهل الربط بين الحواس التي نبحث عنها وبين حدس الزمان ، إذا ما نظرنا إلى الواقع الذي يمثل النتائج التي توصلت إليها سيطرةُ القول الرجولي . الواقع يقول لنا وبشكل فاقع أن حضارتنا قائمةٌ على سيطرة السمعي البصري (L audio_visuel) حيث أن كل ما يحيط بنا ويشكل نسيجَ حياتنا هو هذا السمعي البصري الذي في نهاية المطاف ألغى المسافات(نرى كل العالم على شاشة صغيرة ونعبر القارات بأوقات قصيرة) . نستنتج من هذا الواقع أن الحواس التي نمّيت عند الإنسان حتى الآن هي حاستا السمع والبصر أو نقول بشكل آخر أن الرجل ارتكز على هاتين الحاستين ليبني قولَه الخاص .

من جهة ثانية إذا استعرضنا تاريخَ انبناء هذا القول الرجولي نرى أنه قول مليء بالحروب و الصراعات وفرض سيطرة الأقوى ابتداءً من الأقوى جسدياً حين كان القولُ ما زال قريباً من المحايثة إلى الأقوى مالياً حين أصبح القولُ أقربَ إلى التجريد والتصعيد . هكذا أصبحنا ، وبفضل آلية القول الرجولي ، نساوي ما نملك .أما على صعيد التطور العلمي والتكنولوجي فقد أوصلتنا هذه الحضارةُ الآحاديةُ الحدس إلى تناقض رهيب يتمثل بقمة الاتصال وقمةِ العزلة مع إلغاءٍ للتواصل (العلاقة بالأنترنيت والتلفيزيون) . لقد أصبحنا أفراداً تتحكم بنا الآلة وتعزلُنا عما يحيط بنا .

هكذا نرى أن القولَ الذي بدأ به الرجلُ لإثبات الذات وامتلاك الذات انتهى إلى قول ما أملك أي بتحديد الذات بما ليس هو بل بما له (Etre et avoir) .وهذا يعني أيضاً أن القول الرجولي _ الذكوري الذي كان قولَ الحدس الواحد والذي توصل إلى ما توصل إليه بواسطة استعمال وتنشيط حاستين فقط من حواس جسد الإنسان أي السمع والبصر ، قد أُفرغَ من مضمونه الذي هو توكيد الذات . والعزلةُ التي رمى

فيها الفردَ اليوم هي تماماً نقيضُ فعل القول الذي هو التواصل أي الاعتراف بالآخر كأنا ، وليس الانفصال (عدم الاعتراف بالآخر هو الركيزة الأساسية التي يقوم عليها الإرهاب فكراً وممارسة ... فعل إلغاء المرأة هو فعل إرهابي) إن القولَ الرجولي الذي ألغى المكانَ لا يدري أن إلغاءَ المكان هو في الوقت نفسه تفتيتٌ للزمان لأن المكانَ هو عاملُ الوصل ، المكانُ يوحِّدُ والزمانُ يفصل ، يأكل بعضَه ، تماماً كما " كرونس عند اليونان هو الاله الذي يأكل أولاده . (ربما استطعنا القول هنا أن القول الرجولي قد شارف على النهاية .)

نستنتجُ مما سبق أن قولَ الإنسى يجب أن ينبني على الحواس التي ظلّت عاطّلةً عن العمل في مرحلة بلورة القول الرجولي أي على حاستي الشم واللمس . كيف؟ قبل أن أجيب عن هذا السؤال سأحول تبرير عدم ذكر حاسة الذوق . لم أذكرها لأنني أعتبرها محدَّدة بالجسد وليست محدِّدة له ، إذ أن الإنسان يطلب لغذائه ما يكون الجسد بحاجة إليه ، يعني أن حاسة الذوق تخضع لآلية ربما اشترك فيها الرجل والإنسى على السواء ولهذا السبب لا أدخلها في أدواة بناء القول ، ربما تطلب الأمر نقاشاً لاحقاً .

إذا قبلنا أن القولَ لا يتحقّقُ إلا ابتداءً من متنوع المعطيات الحسية وإذا قبلنا بأن الأنا هو إما رجلٌ إما امرأة ، وإذا قبلنا بأن قول الرجل قائمٌ على حاستي السمع والبصر ، يبقى أن القول الذي ظل صامتاً حتى الآن والذي هو قولُ الإنسى يجب أن يقومَ على ما ظل مكبوتاً أو مهمشاً من الحواس أي الشم واللمس . هاتان الحاستان ليستا مكبوتتين بمعنى أننا لا نستعملهما ، بل بمعنى أنهما لم تسمعا صوتيهما ولم تنتجا قوليهما كما يبدو ذلك واضحاً من واقع الحال الذي ذكرناه سابقاً .

أين تمارس هاتان الحاستان ؟ إن ممارستَهما هي في شكل أساسي بديهي ومحايث في علاقة الحب ، ففي ممارسة هذه العلاقة يُغمض الإنسانُ عينيه ويصمُ أذنيه عن كل ما هو خارجي ويتمتع بشم الحبيب وضمه ومداعبة وملامسة جلده . وهنا لا بد من فتح مزدوجين للكلام قليلاً عن حاسة اللمس ودور الجلد : إن حاسةَ اللمس التي أداتُها الجلد هي بمثابة بوابة الجسد وليست فقط إحدى نوافذه كالحواس الأخرى ، إذ خارج الجلد يكون الإنسان خارج ظاهرته ، يعني لا يعود موجوداً . إن الجلدَ الذي يحيط بكل ظاهرة الأنا التي هي الجسد هو الذي يجعل للجسد مكاناً ، هو الذي يمكينُ الأنا بينما الأذن وبخاصة العين التي ترصدُ الحركةَ تزمننُ الأنا ، ومن يخرج من جلده يبرد كما يقول المثل ، يعني يموت .

نعود إلى مفاعيل ممارسة الشم واللمس لنقول أنهما حاستا الحب والسلام ، بينما رأينا أن كل ما أنتجتُه الحاستان التي ارتكز عليهما القول الرجولي هو الحروب والصراعات والقتل وصولاً إلى الإرهاب . وهذا أمر طبيعي إذ أن المرأة هي التي تعطي الحياة بينما الرجل هو الذي يقتلها ، هي تثبّت ذاتها بالتكرار، بإعادة إنتاج الحياة وهو يثبِّتُ ذاته بإلغاء الآخر ليحلَّ محلَه . من هنا قولُه هو القولُ المبني على حدس الزمان الهروب ، وقولُها يجب أن يكونَ القولَ المبني على حدس المكان . ولكل حدس أدواتُه الالتقاطية ، لحدس الزمان حاستا السمع والبصر ولحدس المكان حاستا الشم واللمس مع التركيز على اللمس لما له من أهمية على صعيد الجسد ككل .

نستنتج إذاً أنه على الإنسى إذا أرادت أن تنتجَ قوَلها الخاص ، أن تمتلكَ جسدها وأن تعرفَه في الوقت ذاته . بامتلاكها لجسدها تكونُ قد تخلَّصت من الارتهان للأب أو الأخ أو الزوج أو العشيرة والمجتمع . وبمعرفتها لجسدها تستطيعُ عيشَ هذا الجسد ، يعني تجعلُه يتخلص من الارتهان لمشيئة حاستي السمع والبصر لتجعلَه يوقظُ وينشّطُ الحاستين اللتين تميزاه عن جسد الرجل . لكن إذا ما امتلكت الإنسى جسدها فعليها امتلاك نتاجه والذي هو الأولاد ، يعني أن تقيمَ قولَ اليقين البديهي مكانَ الشك المبدّد بواسطة القول البرهاني ، يعني عليها أن تجابهَ برهانيةَ التجريد ببداهةِ المحايثة . (هذا ما بدأ يحصل في بعض الدول)

هذا ما يتعلق بوظيفة الجسد وبميزة القول الناتج عن هذه الوظيفة أي البداهة والمحايثة ، يبقى أن نشيرَ إلى الخصائص أو الأسس الأخرى للقول الإنسوي حيث أن قولَ الإنسى من حيث علاقةِ القولِ بالحواس والحدس المتناسب معها ، هو القولُ القائم على حدس المكان وعلى الحاسّتين المهمّشتين

في انبناء القول الرجولي أي الشم واللمس . وإذا نظرنا إلى عناصر انبناء هذا القول الإنسوي فماذا نجد؟ نجدُ أن ركائزَ هذا القول هي الركائز التي تؤلفُ ولا تفرقُ ؛ السمع والبصر هما حاستا الالتقاط عن بعد بينما حاستا الشم واللمس هما حاستا الالتقاط عن قرب ، حاستا السمع والبصر هما ركائزُ قول الحرب ، الشم واللمس هما ركائز قول السلام والحب . هذا من جهة الحواس ، أما من جهة الحدس فنجدُ أن الزمان يلغي ذاته ، كل لحظة تلغي سابقتَها ، هو نهر لا يتوقف عن الجريان ، هو الذي يحوّل الإنسان كائناً للموت كما يقول "هايدغر" ، بينما المكانُ رحبٌ ، هو عنوان الثبات والاستمرار عبر الزمان ، هو عنوان الحياة . الزمان هو حيّزُ التصادم إذ أن اللحظة لا تتسعُ للأنا وللآخر بينما المكانُ يتسع للجميع ، للأنا وللآخر . وهكذا إذا نشّطنا حاستي الشم واللمس وأيقظنا حدسَ المكان ، يصبحُ الآخرُ هو من أتوقُ للوصول إليه والتعايشِ معه وليس من أريد إلغاءَه .

إن إنتاجَ هذا القول يتطلّبُ وقتاً طويلاً لكي يتبلورَ ويصبحَ فاعلاً ، لكن علينا أن نبدأ ولكل مشروع بداية (هذا ما أحاوله في رواياتي من خلال اللغة التي أتبناها ، وهذا ما أشارت إليه إحدى الدراسات الأجنبية مبينة أنها لغة جديدة تسميها لغة الجسد ، وهذا هو تماماً ما أحاول إنتاجه .) لكنني مدركة تماماً أن الانتقال من قول شكل كل مكتسباتنا الثقافية والمعرفية إلى قول آخر نتلمس أواليات إرساء قواعده ، ليس بالأمر السهل . لذا علينا أن نحاول ومن جهتي سأستمر بالمحاولة علّ ذلك يكون بمثابة وضع المدماك الأول في عمارة القول الإنسوي الذي أنا مقتنعة بضرورة إيجاده كي تصبح الإنسى موجودة وفاعلة تتمتع بكل الحقوق التي هي محرومة منها الآن .

هذه المطالبةُ البعيدةُ التحقيق لا تعني أن توقفَ الإنسى نشاطها الحالي في المطالبة بحقوقها حتى يتحققَ قولُها الخاص، لكن عليها، كما أعتقد ، أن تصوّبَ مطالبَها انطلاقاً من وعيها لطبيعة قولها المختلف فتبدأ بحصر كل طلباتها بمطلب واحدٍ وهو حقها في أن تنسبَ الأولادَ إليها ، لكن هذا المطلبَ يفترضُ من يُنسبُ الأولادُ إليه يعني يفترض أن يكونَ للمنسوب إليه اسمٌ ، ونعلم ، كما ذكرنا في المقدمة أن لفظة امرأة تعني نكرة . نرى إذاً أن أولَ مطلبٍ يجبُ أن تركّزَ عليه المرأةُ الحالية الواعية للمشكلة ، وبالتحديد المرأة العربية ، هو أن تغيّرَ اسمَها الحالي ، وأنا اقترحت كلمة "إنسى" كمؤنثٍ لأحد إنسي كلمة إنسان كما رأينا في المقدمة . أعرف أن هذا المطلب لن يتحققَ بسهولة ، لكنه المطلبُ الأوحد لأن به أكون أولا أكون . هل نقع هكذا في دوامة أو حلقة مفرغة ، بمعنى أنه علي أن أكون كي أقول وبالمقابل علي أن أقولَ كي أكونَ ؟ إنه سؤالٌ يشابه سؤالَ البيضة والدجاجة وأيهما أسبق . والحقيقة أنهما نشاطان يسيران معاً إذ كلٌ منهما هو دفعٌ للآخر نحو التحقق. وهذا يعني وبكلام واضح أن على المرأة وأبادر وأقول على الإنسى أن تنشطَ عملياً في المطالبة بتغيير اسمها وان تنشطَ نظرياً في إيجاد قولها المميز بسبب تميز أسسه . (عليها مثلاً ، إذا اقتنعت بمصطلح " إنسى " ، أن تبدأ باستعماله ، وصولاً إلى فرضه .)

إذا استطاعت الإنسى أن تبنيَ وتفعّلَ قولَها الخاص يصبحُ القولُ الإنساني متعافياً ويصبح بإمكانه أن يبني حضارةَ السلام وأن يتوصّل إلى المعرفة الحقيقية القائمة على حدس المكان وحدس الزمان معاً وليس على حدس واحد . وهكذا يتحولُ نضالُ الإنسى إلى بحثها عن موقعٍ لها لا أن تزيحَ الرجلَ لتحلَ محلَّه كما هو منطق المطالبة النسوية الحالية (الاستمرار في استعمال كلمةً نسوي للنضال الحالي) ؛ فحين أقول للآخر أنا مثلُك تماماً هذا يعني أنه يحقُ لي أن آخذ مكانَك ودورَك ، لكن حين أقولُ وأثبّتُ للآخر أنني مختلفةٌ فهذا يعني أن آخذ مكاناً إلى جانبه ، هو مكاني الفعلي وذلك من دون صراع ولا مبارزات .

رأينا أن القولَ القائمَ على حدس واحد هو قولٌ يؤدي بالنهاية إلى إلغاء ذاته كما هو حال القول الرجولي الآن . ربما كان إحياءُ وتنشيطُ القولِ الإنسوي القائم على الحدس الآخر أي حدس المكان إنقاذاً للقول الإنساني الذي لا يستقيم فعلاً إلا إذا كان مكوناً من القولين معاً . وهنا سؤالٌ يطرحُ نفسَه : إذا كان كلٌ من القولين قائماً على حدس واحد فهذا يعني أن لا لقاءَ بين القولين . هذا صحيح إذا اعتبرنا أن الرجل الفعلي الواقعي هو ذكورةٌ محض والإنسى الفعلية الواقعية هي أنوثةٌ محض . لكن هذا الاعتبارَ

غيرُ صحيح إذ أن كلَ فرد مكونٌ من العنصرين معاً مع رجوحٍ معين لأحدهما يكون هو المحددُ في انتماء الفرد إلى جنس من الجنسين . لهذا السبب كل واحد منا وإن كان ، بما فيه من رجوحٍ جنسي يبني قولَه على حدس واحد إلا إنه قادرٌ على فهم وتفهم الآخر لأنه في شق منه أي الشق غير المحدِّد هو مثلُ الآخر .

مع نهاية القول الذكوري كما رأينا ربما نكون قد وصلنا إلى مرحلة التوليف بحسب التعبير الهيغلي ؛ يعني إذا كان القولُ الإنسوي هو الذي سيطر في المرحلة الأولى كما رأينا وإذا كان القول الرجولي هو الذي سيطر في المرحلة الثانية ، ربما كانت المرحلة الثالثة هي مرحلةُ التوليف بين القولين لإنتاج قولٍ جديد وحضارة جديدة يكون الشم واللمس ، إلى جانب السمع والبصر من ركائز قولها الأساسية .
أعتقد أخيراً أن هذا القول الجديد بدأ يتململُ حيث أننا نجد بعضَ إرهاصاته في الرواية الجديدة التي تكسّرُ الزمان وتركّز على المكان . ونجد هذا الجديد في الفلسفة أيضاً وبخاصة في قول الحداثة حيث نجدُ مثلاً أن فوكو يتصورُ طباقَ العقل (l' L autrede raison) كنبع مجهول تقومُ بواسطته السلطةُ في التفاعلات الجسدية ، بينما نجد أن هايدغر الأقل أنوثة من فوكو يعتبر أن طباقَ العقل كقوة أصلية مجهولة يتحدَّد بانسياب الزمان . (هابرماس) . والمفارقة أننا نجد قولاً إنسوياً عند الرجل أكثر مما نجده عند المرأة ذاتها ، لكني أجد أن الأمرَ طبيعيٌ الآن إذ إن الرجل يقول ذاته ، هو مرتاحٌ ومنسجم مع ذاته ولهذا السبب يُظهرُ في قوله الجزءَ الأنثويَ الداخلَ في تركيبته ، بينما المرأةُ (استعمال المرأة هنا هو أصح من استعمال إنسى) ولأنها ترفضُ ذاتِها لتتمثلِ بالرجل فهي تغالي بتبني قول الرجل فيأتي قولُها أحياناً أكثر ذكورة من قوله، وكأنها تريد بذلك أن تدعِّمَ مطالبتَها بالمساواة معه .

أنهي موضوعي بدعوة الجميع إلى حوار حول المبادئ التي حاولت إثارتَها ، ربما توصلنا معاً إلى صياغة مصطلحات جديدة أو ربما اتفقنا أو اختلفنا حول بعض الأمور. في مطلق الأحوال ومهما كانت النتائج فهي جيدة لأنها ستكون مدخلاً إلى جديد ما .

د. إلهام منصور.